خطاب رئيس الجامعة الانطونيّة (٣)
الاب انطوان راجح

لمناسبة الذكرى السنويّة الثانية عشرة
على تجدّد انطلاقة الجامعة

الجامعة والبحث العلمي

١٥ ايّار ٢٠٠٨
عيد سيّدة الزروع

الجامعة والبحث العلمي

تمهيـــد

نلتقي مجدّدًا في كنف سيّدة الزروع، سيّدة المواعيد التي لا تخيّب والحصاد الذي لا يكذب...

سيّدة الأمل الذي يزهر ليعقد، والمثابرة الأكيدة من جناها...

سيّدة ذلك الكرَم الذي يُطلع من التراب خضرة ومن المطر ثمرًا ومن تتابع الفصول روزنامة وعد وجنى،

وسيّدة ذلك الجهد الإنساني الذي انتقل من القطاف إلى الزرع، أي من الإستهلاكية السلبية إلى السيطرة المبدعة، بل سيّدة الجهود الإنسانية كافة. فما الزراعة سوى نموذج رمزي عن العمل الإنساني أي عمل، سواء طوّع الإنسان المادة ليصنع منها امتدادات اصطناعية لأعضائه العاملة، أو ليؤثّث بها عالمه الحامل توقيعه، أو كان عمله إدارة وتسييرًا يطلعان من الموارد أفضل ما فيها وينسّقان غنى الكثرة في تماسك الوحدة، أو تعليمًا ينقل من جيل إلى جيل إرث المعارف، والوقاحة المباركة القادرة على تحدّي الإرث لتطويره،

سيّدة الزروع هي إذًا سيّدة العمل أي عمل... لذا فإنجازات سنتنا، بل كل سنواتنا، آيلة كل أيار إلى أن تمثل أمامها، فتحتفل معها بما أنجز، وتحاسب نفسها على ما لم يكتمل، ونتفكّر بهدي محبّتها بما ينبغي أن نفعل ليأتي الحصاد المقبل أوفر وأشهى.

وبعد،

أردنا لعمر جامعتنا أن يكون مقياس طموحاتها، لذا فهي كلّما طوت عامًا من عمرها أبت إلا أن ترفع سقف الطموح فتنتقل من الحبو إلى المشي ومنه إلى الركض فالتحليق باتجاه ما يمكنها أن تكون، بل ما يجدر ويليق بها أن تكون.

وهي إذ تتوسّع من حيث الإختصاصات والفروع، وتكبر من حيث عدد طلابها ومنشوراتها السنوية، ومن حيث الإنخراط في التكتّلات الجامعية، المحلية والإقليمية والدولية، تأبى إلا أن تترقى أيضًا في مهامها الجامعية الأخرى وعلى رأسها البحث العلمي الذي لولاه تتحوّل الصروح الجامعية أضرحة للفكر أو أنصابًا تذكارية على شرفه.

واهتداء بمثل الوزنات، دأبنا، كأفراد كفوئين وكجماعة متضامنة متكاملة، أن نفعّل إمكاناتنا إلى أبعد الحدود من دون توهم حول قدراتنا الفعلية وضيق ما تتيحه أوضاع الوطن وموارده الشحيحة والآخذة بفعل الهجرة والهدر بالتضاؤل. فليس لبلد كلبنان أن يضاهي بلدان العالم الأول من حيث إنتاجه العلمي وليس للجامعة الأنطونية أن تنافس أخوات لها يكبرنها بعقود. إلا أن لها أن "تحفر، حيث هي، عميقًا وعميقًا جدًا" بحسب تعبير نيتشه، أي أن تدفع بما أوتيت من موارد وإمكانات إلى أقصى حدود الطموح الجدّي المشروع. وعليها بالتالي أن تخطّ لطموحها ذاك دروبًا واضحة المعالم والأهداف.

من هنا ارتأينا أن ينصبّ خطابنا لهذا العام على الآفاق التي ينبغي للبحث العلمي في جامعتنا أن يسير باتجاهها.

وسوف نعتمد تصميمًا استنتاجيًا ينطلق من إشكاليّات البحث الإبستمولوجية واللوجستية بشكل عام، لنتعمّق، بعد ذلك، في سياسة الجامعة الأنطونية البحثيّة بشكل خاص، متوقفين عند مجمل مفاصل العملية البحثيّة وشروطها المادية والأكاديمية والبشرية.

١- في مفارقات البحث العلمي

أثبت تعاقب الثورات الإبستمولوجية والثورات المضادة لها أن التوتّرات والإشكاليات التي حاول الفلاسفة والعلماء حسمها تارة لصالح أمبيرية متخاذلة وطورًا لصالح عقلانية إختزالية، إنما هي غير قابلة للطمس. بل هي سرّ ديناميّة العلوم وحركيتها. ولعل أبرز تلك التوتّرات التي ينبغي لكل بحث علمي أن يعيها :

أ- العلم بين التأمل والتدخل

يتأرجح مفهوم البحث العلمي حاليًا بين نزعتين كبريين تعبران الأعمال الإبستمولوجية التي ميّزت القرن العشرين. النزعة الأولى كناية عن عودة إلى الأمبيرية، ليس بمعنى التأمل السلبي للطبيعة وحسب، بل بمعنى تخطي الوجود للفكر، والتنبيه إلى مخاطر انغلاق هذا الأخير على ما ينتجه. النزعة الثانية تنتقد الإمبريالية التي تمارسها الطبيعة على الذات العارفة في الأمبيرية، وتعتبر أن البحث العلمي قائم على "افتعال الظواهر" التي يدرسها، فهو يقاربها انطلاقًا من إطار نظري يسمح له بمساءلتها. وإذا كان الأمبيريون

مصيبون باعتبار الإختبار منبع الحقيقة العلمية الوحيد، فإن الطبيعة، بعرف خصومهم، لا تجيبنا إلا على الأسئلة التي نطرحها عليها وعلى أنفسنا.

ب- بين الوصفيّة والتفسيريّة

لعل أبرز سمات الثورة العلمية في القرن السابع عشر، إنتقال علوم الطبيعة من لغة الكيف المليئة التباسات واسقاطات ثقافية وذاتية، إلى لغة الكم، أي لغة الموضوعية والدقة. وهو انتقال ستحاول علوم الإنسان أيضًا، إعتبارًا من القرن التاسع عشر، أن تنجزه، في محاولتها اكتساب المشروعيّة العلمية.

فاكتشاف غاليلي أن كتاب الطبيعة مكتوب بلغة الأرقام رفع الرياضيات إلى مصاف اللغة العلمية الكونية، وجعل من قابلية القياس مرادفًا أوحد للمعرفة العلمية. من هنا لا تغدو الظاهرة الطبيعية موضوع علم ما لم تُترجم إلى الكم، وإن التمكّن من قياس ظاهرة كانت حتى تاريخه عصية على لغة الأرقام هو فتح لقارّة علمية جديدة.

إلا أن هذه الثورة نفسها أبعد ما تكون عن النهائية. وقد شهد العقدان الأخيران من القرن العشرين عودة إلى مفاهيم الفرادة، والسرد، والكيف (وهي مفاهيم أقصيت عن المعجم العلمي منذ قرون) مع ما يسمى "المنهجيات السردية" أي التي تعترف بمدى محدوديّة نموذج التجريد والتعميم الذي تعتمده الإبستمولوجيا الكلاسيكية، وتذهب باتجاه معاييرية critériologie جديدة قد لا تكون للرقم فيها القيمة المعرفية التي درجنا على إعطائه إياها[١].

ج-بين الأنا والنحن

لا شك بأن صورة العالِم المنعزل في صومعته ما تزال حاضرة لا في الوعي الجماعي وحسب، بل في بعض ميادين العلوم أيضا، كالفيزياء النظرية والرياضيات، إلا أن الشكل الأساسي حاليًا للبحث العلمي هو الشكل الفريقي. من هنا كون مراكز الأبحاث والجامعات هي الأمكنة المثلى للإكتشاف والإختراع. وربّ قائل إن لوائح الكُتّاب الطويلة التي ترفق حاليًا بالمقالات العلمية، والتي تتخطّى في طولها في بعض الأحيان طول المقال نفسه، يمكن الإستعاضة عنها بصاحب الفكرة المفتاح والتي تأتي لفرد، خارج الأطر المؤسسية... وإذا صح قول ديغول لوزير طلب إليه زيادة الميزانية المخصّصة للبحث العلمي لزيادة عدد الباحثين:

[١] I. Stengers, **Le pouvoir des concepts,** Paris, La Découverte, ١٩٨٩.

"الباحثون؟ لدينا ما يكفي منهم، ما يلزمنا هو واجدون!"، بمعنى آخر إن صحّ أن دينامية الإكتشاف غير خاضعة لقواعد البحث المنظّم، وأن الأفكار تأتي للعباقرة حيث هم... أفلا يغدو مفهوم العمل الفريقي قناعًا لعبقرية فردية تعمل بأذرع الآخرين الكثيرة؟

أولم يروِ هلمهولز Helmholz أن الوحي لا يأتيه إلا خلال نزهته في الجبل؟ أولا يذكر جميعنا أن الصيغة الكيميائية للبنـزين اكتشفها كيهولي Kéhulé في قيلولته قرب الموقد، أو أن أبرز اكتشافات بوانكاريه Poincaré كانت تأتيه في سريره صباحًا أو عند استقلاله الحافلة..؟

ولكن في الوقت عينه يبقى أن الحدس الأول ليس لوحده اكتشافًا بل بدء اكتشاف، لذا فهو بحاجة إلى عمل مضن ودقيق حتى يُختبر ويثبت. فلا بد بالتالي لأنا المكتشف من نحن الجماعة العلمية.

والعودة إلى النحن ليست فقط نابعة من ضرورة الإثبات والتجريب بل من ضرورات الإستمرارية.

البحث إذًا مدٌّ وجزر بين التجريب والتنظير، واحدهما محك الآخر، علاقة جدلية بين الفرد والجماعة، بين الحدس والبرهان، بين التأمّل والتدخّل، بين إغفال الخصوصيات بحثًا عن مشتركات تبيح التجريد، والإصغاء إلى دلالات الخاص حيث هو حرصًا على غنى الوجود من إختزاليات العلوم الكلاسيكية. لذا فهو أبعد ما يكون عن روح العلموية الدوغمائية، وهو أفضل تمرين للذهن والأخلاق على المثابرة والنـزاهة والتعاون.

٢- استراتيجية جامعتنا على صعيد الأبحاث

أ- في مواجهة المصاعب

سعت الجامعة الأنطونية منذ نشأتها إلى أن تنأى عن تعليم عال لا يكون سوى تعليم ثانوي متقدّم، يكتفي بنقل المعارف نقلا سلبيًا غير إبداعي، وذلك على الرغم من صعوبات جمة ابرزها:

- ضعف الموارد المادية والبشرية. إذ لا تتيح الأوضاع الإقتصادية للجامعات، ولا سيّما الناشئة منها، أن تخصّص من ميزانياتها، النسبة الملائمة للبحث العلمي.
- تأخر التعليم ما قبل الجامعي عن تطوير ما يلزم من مهارات تنبني عليها عادة كفايات البحث العلمي. مما أدّى بالتعليم العالي اللبناني كلّه إلى الإنصراف إلى تأمين ألف باء تلك الكفايات ومنها التمكّن اللغوي، والمعارف الأساسية...فعلى الرغم من الوعود والشعارات، يلاحظ جميعنا الصعوبة التي يلاقيها التعليم العالي في أداء مهامه كمنتج للمعارف والأبحاث إزاء مستوى الكفايات التي تضخّها إليه مراحل التعليم ما قبل الجامعي، والتي تستدعي إعادة نظر في المناهج التربوية وفي المستوى الذي آلت إليه الإمتحانات الرسمية.
- أضف إلى ذلك ضعف العلوم عامة في مجتمعاتنا وغيابها عن الأولويات الوطنية. يكفي أن ننظر إلى عدد المنشورات العلمية قياسًا على المنشورات الأخرى، أو إلى البرامج العلمية مقارنة بالبرامج الترفيهية والتسويقية وغيرها على شاشاتنا، لنتبيّن مدى سيطرة الثقافة الخطابية والإستهلاكية في مجتمعاتنا وخطابنا العام.

إلا أن ذلك لم يمنعها من إبقاء البحث أولوية في انهماماتها. يتجلى ذلك على أكثر من صعيد أبرزها:

ب- البحث العلمي في المناهج الجامعية

لا شك بأن الجامعات مدعوة لا لأن تكون منتجة للأبحاث وحسب بل ومنتجة للباحثين. من هنا أهمية إيجاد الإستراتيجيات الضرورية لإدخال التدريب على تقنيات البحث في المناهج، ليس فقط كمنهجيات صورية تقوم على طرح الإشكاليات، وإصدار فرضية تفسيرية ثم العمد إلى تفحصها، فإن هذا التمرين النظري، مطبَّقًا على معارف مكتملة، ليست له القيمة التعليمية نفسها كالبحث الحقيقي، فمكابدة احتمال الفشل هي بالنسبة للإختبار العلمي، تمامًا كما هي قابلية الدحض بالنسبة للنظرية، معيار العلمية الأول والأهم.

إن التفريط بهذه الحقيقة أدى بالكثير من المدافعين عن تعليم منهجية البحث إلى تحويل الأبحاث الجامعية الطالبية إلى مجرد ملخصات يسميها

عدنان الأمين "خواطر وتأملات"، أو إلى عرض، تحليلي نقدي، لمكتسبات معرفية جاهزة.

خيارنا في هذا السياق يتلخّص بالتالي :

- إشراك الطلاب بالمشاريع البحثية التي تقوم بها كلياتهم، بدءًا بالمهام التوثيقية، الإحصائية، أي بإعداد المادة المعرفية الأولى التي ينطلق منها البحث بهدف تطويرها أو تصحيحها، وصولا إلى المهام الأكثر محورية في العمل البحثي: كالإشتراك في طرح الفرضيات، وابتكار وسائل التحقق منها، أو التفكر في التطبيقات العملية التي يمكن تثمير اكتشاف نظري من خلالها.
- اختيار الأعمال البحثية الموكلة للطلاب بحيث تدرِّس إشكاليات لا تزال عالقة ومفتوحة على الدرس، بمعنى آخر، الإنتقال من البحث الإفتراضي إلى البحث الفعلي.
- هيكلة المقررات الدراسية بحيث تتدرج الكفايات البحثية فيها من اكتساب المعارف بطريقة منهجية منظمة، إلى تطوير القدرة على نقد المعرفة وتمحيصها، وصولا إلى تحديد الإشكاليات والآفاق المستقبلية التي يفتحها كل اكتشاف علمي...
- تطوير مهارات العمل البحثي الفريقي على الصعيدين المنهجي التنظيمي، والأخلاقي العلائقي.
- إدراج :

أ- أطيقا البحث العلمي، خاصة في ما يتعلق بحقوق الملكية الفكرية، وقواعد الإقتباس، والنـزاهة العلمية بشكل عام.

ب- والتشريعات الرسمية التي تنظمه في لبنان مقارنة ما هي عليه في العالم المتقدم

ت- والقيم والمعايير التي تسود المجتمع العلمي La communauté scientifique

في مناهج الدراسات العليا كجزء أساسي من التأهيل العلمي والمهني المتقدم.

يضاف إلى الأهداف الواردة أعلاه، الخلفية الفكرية التي صيغت على أساسها هذه البرامج، والتي على الأساتذة أن يستوحوها في بنائهم

لمضمون موادهم التعليمية ومنهجيتهم في التعليم والمرافقة. اهم عناصر هذه الخلفية القناعة بضرورة التشديد على تاريخية العلوم والمعارف، أي نسبيّتها ولا نهائيتها، بالتوازي مع الثقة المتينة بالعقل وقدراته.

وليس التوازي هذا بالمعادلة البسيطة غير المحتاجة إلى البرهان، فإن العقلانية معرضة دومًا لأن تجنح نحو الوضعية المتطرفة وتتحول إلى دوغمائية، ومن طبيعة الإقرار بنسبية المعرفة أن يقود إلى نسبوية لاأدرية تهدم العلم بهدمها الحقيقة والعقل. لذا، فإن تنشئة الطلاب على تلك الحمية الفكرية الصعبة التي تُعرَف بالعقلانية الجدلية ركن من أركان التأهيل على البحث العلمي. ولكنها فوق ذلك تحدّ للسستام الجامعي نفسه، إذ يجنح إلى تنميط الفكر والبحث في نماذج معينة تنتهي في بعض الأحيان في شل القدرات الإبداعية عند الطلاب، لذلك كان أينشتاين يعتبر أن عبقرية فاراداي متـأتّية بشكل أساسي من عدم خضوعه لتنشئة أكاديمية!

والواقع أن كل مرحلة من تاريخ العلم محكومة بنموذج معياري يحدّد العلمية، والمناهج، وطبيعة الإشكاليات ويكون مشتقًا من إنجاز علمي تحول مدرسة في البحث تمامًا كما كان حال فيزياء أرسطو، والمجسطي لبطليموس Ptolémée ، ومبادئ نيوتنNewton ، وجيولوجيا لييلLyell.. ومن طبيعة "النماذج" أن تفتح مجالات واسعة بما يلبي فضول الباحثين لفترة طويلة، لذا تقوم مؤسسات التعليم بتبنّيها ورفعها إلى مصاف المثل المنهجية والبحثية، ولكنها في الوقت عينه تهدد بتعطيل قدرة الفكر على تخطّيها. فهي في الوقت عينه النماذج التي بإجادتها يصبح الطالب عضوًا في المجتمع العلمي. ولكن الأشخاص الذين تنبني أبحاثهم على النماذج paradigmes يلتزمون المعايير والقواعد نفسها في الممارسة العلمية وقلّما يناقض بعضهم بعضا، أو تقتصر إختلافاتهم النظرية على تفاوتات جزئية تبقى ضمن النموذج الواحد[٢]. أما الإكتشافات الحقيقية أو الكبرى فلطالما حدثت من خارج المناهج "الأرثوذكسية"، ممّا يعطي لإبستمولوجيا "القطيعة" قيمتها الحقيقية.

الإشكالية إذًا هي في كيفية التنشئة على البحث بالتوفيق بين صرامة النهاجات المعتمدة واليقين بأنها ليست سوى لحظات، علينا تخطّيها، في صيرورة العلوم.

---

[٢] Thomas Kuhn, **La structure des révolutions scientifiques**, Paris ١٩٨٣ (١٩٧٠), Champs Flammarion, trad. Laure Meyer.

"يقول الجامعيون أحيانا بأنهم يخشون إحباط علماء المستقبل إن هم بينوا لهم محدودية الحقيقة التي يتعاملون معها"[٣] إلا أنه من الضروري تأطير التنشئة العلمية ضمن إبستمولوجيا توضح لهم أن الإكتشاف هو انتقال من فكرة غير صائبة إلى فكرة أقلّ خطأ، وأن الحقيقة، ما لم تكن تلك الوديعة الايمانيّة المتألقة، مقولة تاريخيّة تتغيّر وتتبدل وينبغي لذلك لا أن يحبطهم، ولا أن يذهب بهم إلى النسبوية اللاأدرية بل إلى روح علمية حقيقية تعرف أن البحث مقاومة يومية لجاذبية الأفكار المسبقة، حتى العلمية منها، والعادات الفكرية غير الواعية، والنـزوع إلى الإمتثال للسائد من الأفكار... وأنه محاولة دائمة للنظر إلى الوجود من وجهات جديدة، جرأة طرح السؤال "ولم لا؟" حول ما يـبدو للإرتياء العام استحالة وعبثًا.

عوض أن تحبطهم، ينبغي لهذه الحقيقة التي تحتاج أن يسهموا في بنائها، أن تستنفر قواهم. ولا شك في أن ترسيخ هذه الذهنية سينعكس إيجابًا ليس على مستوى البحث والإنتاجية العلميين وحسب بل أيضًا على رؤية طلابنا للكون ومقاربتهم للأفكار والمعتقدات والمعضلات في سائر ميادين الحياة.

ج- المنشـورات

تعتبر المنشورات رائز البحث العلمي، وجسره إلى الإعتراف والتواصل، لا بل يعتبر النشر مسألة مصيرية في المؤسسات البحثية الكبرى حيث يسود مبدأ publish or perish. كما وتأتي المنشورات العلمية في مقدمة المعايير التي تعتمد لتصنيف المؤسسات الجامعية. لذا تعتزم جامعتنا متابعة ما بدأته في هذا السياق :

ج-١- تطلق جامعتنا هذا العام مجلة Pertinence للبحث العلمي المتعدد الإختصاصات وذلك سعيًا إلى الأهداف التالية:

- تشجيع الأبحاث المشتركة بين الكليات والأقسام المتنوعة كالأبحاث الرائدة التي تتولاها كليتا الصحة العامة والهندسة المعلوماتية أو تلك المشتركة بين كليتي الصحة والتربية البدنية، إضافة إلى الدراسات التي تعدّها كليتا إدارة الأعمال والإعلان .

[٣] Valérie Marange, « Les outils de la pensée »._ Joël Roman, **Chronique des idées contemporaines**, Paris, Bréal, ١٩٩٥, p. ٥٨٤.

- تعميم الفائدة مما تنتجه الجامعة من أبحاث علمية ومهنية، الأولى تسهم في توسيع المعارف والثانية في تقديم تقنيات جديدة ذات نتائج مباشرة في ميدان الممارسة المهنية.
- فتح طريق النشر العلمي أمام طلاب الدراسات العليا، وتقديم نماذج من البحث للطلاب خاصة وأن التدريب على البحث واحد من أهم أهداف تنشئتنا الجامعية كما أسلفنا.
- ربط باحثينا بالمجتمع العلمي العالمي إنطلاقًا من لبنان، بحيث تشكل المجلّة واسطة بين الجامعيين وكبريات المنشورات العلمية المحكّمة.

ج-٢- تضاف هذه المجلة الجديدة إلى **"مجلّة التقاليد الموسيقيّة في العالمين العربيّ والمتوسّطيّ"** RTMMAM وهي كناية عن دوريّ علميّ موسيقيّ سنويّ، ذي لجنة تحكيم دوليّة (مؤلّفة من أكاديميّين من جامعة السوربون وجامعة باريس العاشرة ومركز البحوث العلميّة الوطنيّ الفرنسيّ والجامعة الأنطونيّة)، مكرّس لدراسة التقاليد الموسيقيّة الحيّة و (أو) القديمة المنتمية إلى النطاقين الثقافيّين العربيّ والمتوسّطيّ - وإلى النطاقات القريبة والمجاورة – وذلك من منظار موسيقولوجيّ تحليليّ، يتغذّى من تعدّد المسالك التخصّصيّة، ومنخرط في مشروع إنشاء موسيقولوجيّة شاملة وعامّة للتقاليد في العالم. وهي نتيجة تعاون أكاديميّ حثيث بين المعهد العالي للموسيقى في الجامعة الأنطونيّة وكليّة الموسيقى والموسيقولوجيّة في جامعة باريس السوربون (باريس الرابعة).

ج-٣- كما تصدر كلية العلوم اللاهوتية والدراسات الرعائية في الجامعة الأنطونية دوريًا بحثيًا بعنوان **"أورحو"** (الطريق)، والتي ترسم دروب البحث في هذه الكلية ذات الخيارات الأكاديمية الجريئة، بدءًا بتبنيّها العربية لغة للبحث والتعبير تفيد من اللغات البيبلية واللغات الحية لتنتج لاهوتًا أصيلاً بالعربية، وصولا إلى اعتبارها الحوار مع إيمان الآخر مدماكًا أساسيًا في فهمها لرسالتها المسيحية.

ج-٤- أما الشؤون الوطنية والسياسية فهي أيضًا موضوع أبحاث، وقد خصصنا لها سلسلة **"و ط ن"** وهدفنا من خلالها إلى الإنتقال بالهم الوطني من مستوى الشعارات الإستهلاكية والتجييشية إلى مستوى الدراسة الأكاديمية، ربط اليوميات السياسية بالموضوعات المفصلية التي تتفرع عنها عوض الإكتفاء باقتفاء الأحداث الجزئية وتوصيفها أو التأثر بها على مقام الإنفعال العابر والمنحاز.

ج-٥- ولا ننسى سلسلة **"إسم علم"** وهي سلسلة تكريمية افتتحناها هذه السنة بتحية إلى الفيلسوف اللبناني ناصيف نصار، على أن تصبح دوريا سنويًا يجمع الدراسات القيمة حول أبرز وجوه الفكر اللبناني المعاصر. وفلسفة إسم علم قائمة على اعتبار أرقى أنواع التكريم للمفكّر، التفكير في نتاجه أي البحث في كيفية تثميره وتطويره.

ج-٦- إشارة إلى الطابع البحثي الذي ارتأينا أن يتّسم به خطاب رئاسة الجامعة السنوي والذي ميّز تطرّقنا لموضوعات بالغة الأهمية كالعلاقة بين مؤسسات التعليم العالي، وإشكالية السياسة في الجامعة وهذا الموضوع وما سيأتي..

د- أساتذتنا بين التعليم والتفرّغ للبحث

يكثر الحديث عالميا عن العلاقة بين البحث والتدريس. وفي حين تنادي بعض الأنظمة بضرورة الفصل بين الإثنين باعتبارهما نشاطين منفصلين، خاضعين لمعايير أكاديمية ووظيفية مختلفة، متطلبين لكفايات مختلفة، نجدنا أميل إلى القول إن الوسيلة الوحيدة للإفادة القصوى من مواهب البحاثة هي وضعهم حيث "ينيرون لجميع الذين هم في الجامعة" أي على منابر التعليم.

لا يعني ذلك الرضى عن وضع الأساتذة في التعليم العالي في بلادنا. فإنهم محكومون بتخصيص الأغلبية الساحقة من وقتهم للتدريس لتأمين معيشتهم، بحيث تبدو الأبحاث والمطالعات ترفًا يتحمل الأستاذ وحده كلفته.

خيارنا في الجامعة الأنطونية السير إلى مزيد من تفريغ الأساتذة بحيث يغدو تدريسهم فرصة لبثّ الروح البحثية لدى الطلاب لا تحجيرًا لمهاراتهم

في عقم التكرار والتلقين. خيارنا أن نتبنّى أبحاث أساتذتنا تمويلا ونشرًا، وأن نستثمر طاقاتهم في مشاريع بحثية عابرة للكليات والإختصاصات.

وإذا عدنا إلى تاريخ العلوم، فإن المنهج التجريبي الذي تعتمده حاليًا، في خطوطه الكبرى على الأقلّ، كل الميادين المعرفية، والذي نقل الفكر البشري من "الحالة الميتافيزيقية" على حدّ تعبير أوغست كونت Auguste Comte، إلى "الحالة الوضعية"، لم يبدأ مع غاليلي Galilée كما درجنا على القول... فلقد سبقه إليه بقرون عدة كل من أرخميدس Archimède في الكيمياء وبطليموس في علم الفلك، فلماذا إذًا تأخرت نهضة الفيزياء حتى القرن السابع عشر؟

ذلك أن الذين اعتمدوا هذا المنهج من علماء اليونان لم يقلّدوا، أي لم يتتلمذ عليهم من يجعل من النهاجة التي اعتمدوها أسلوب عمل وبحث.

لذا يشدّد مؤرخو العلوم أن الفيزياء الحديثة بنت غاليلي، ليس لأنه اخترع العدسة الفلكية ولا بسبب محاكمته الشهيرة عام ١٦٣٣ بل لأنه كان، إلى ذلك كلّه، أستاذًا في جامعة بادوا Padova، نقل إلى جيل من الزملاء والطلاب خبرته ومنهجيته... لذلك قيل "لو علّم أرخميدس في جامعة سيراقوزا Siracusa لربح العلم ألف عام في تطوره"[٤].

أما حاليًا، وعلى رغم وجود مراكز أبحاث مستقلة أو مرتبطة بالصناعة، فإن الجزء الأكبر من الإنتاج البحثي العالمي يبقى ذلك الذي تنتجه الجامعات، والذي ينمو بفعل ذلك التلاقح العجيب بين الأجيال، والتفاعل المثمر بين التعليم والبحث.

هـ -ميادين البحث الممكنة

إذا كانت مجالات كفيزياء الجزيئيات، وعلوم الفضاء، والهندسة الوراثية تتطلب تجمّعات ضخمة وموارد ماديّة وبشريّة هائلة تتخطّى مأمولنا كجامعات لبنانية في القريب المنظور، فإن ميادين بحثية أخرى تبدو أسهل منالا وأقرب إلى حاجاتنا التنموية. ولا سيما منها التقانة الأحيائية، والطاقة المتجدّدة وتسيير الموارد المائية والأغذية والزراعة والطب والصيدلة والتربية... وهي موضوعات مرتبطة ارتباطا عضويًا بالحاجات التنموية للبنان والمنطقة.

---

[٤] Allègre Claude, **Dictionnaire amoureux de la science**, Paris, Plon/Fayard, ٢٠٠٥, p. ٥٢٢.

ولا شك في أن الميادين الأوسع للبحث مفتوحة الآن على تخوم العلوم المعروفة، وفي ما بينها، وفي مناطق تداخلها، لذا فإن مجالات كأعصابيات التربية، وأعصابيات الإقتصاد تشكل فرصا مهمة، خاصة وأن الأبحاث في هذا المجال قليلة الكلفة نسبيًا، وارتباطها بالتطبيق مباشر. وفي ذلك حافز جديد لتوطيد أواصر التعاون بين الإختصاصات على صعيد الأبحاث.

أما على صعيد علوم الإنسان والمجتمع، فحاجاتنا التربوية والتشريعية والسياسية ظاهرة للعيان ولا حاجة بنا أمسّ من حاجتنا إلى مقاربات علمية لهذه الميادين تخرجنا من الرهانات الأيديولوجية واستيراد الحلول الجاهزة.

ولعل النشاط البحثي الحثيث الذي يشهده ويديره مركز اللغات والموارد في الجامعة الأنطونية خير دليل في هذا المجال. فهو يلعب دورًا رياديًا في الإنتقال بتعليم اللغات في لبنان من النهج التلقيني إلى النهج التفاعلي، بإيجاد أفضل الوسائل للإفادة من تكنولوجيات الإتصال في هذا المضمار.

و - التنسيق بين الجامعات

ليس التنسيق بين الجامعات على صعيد البحث مبادرة اختيارية، بل هو من تلك الحتميات السعيدة التي تلزمنا بها مواردنا المحدودة واختصاصاتنا المتقاربة. لذا لا بد من تعزيز فرق العمل المشتركة التي تسهم في الإفادة القصوى من الموارد، ولا شك في أن ما بدأته كلية الهندسة من حيث التنسيق بين عمادات كليات الهندسة المعلوماتية في مختلف جامعات لبنان جدير بالتنويه في هذا المجال.

يضاف إليه مشروع **"التفسير الحديث للكتاب المقدّس"** باللغة العربيّة وهو مشروع تبنّته كليات اللاهوت والدراسات الرعائية في كل من الجامعة الأنطونية، وجامعة البلمند، وجامعة الروح القدس في الكسليك **والذي** يهدف إلى إصدار تفسير علمي، وبالعربية، للكتاب المقدس بعهديه، يكون على مستوى التفاسير المنشورة ضمن المجموعات التفسيرية الكلاسيكية الكبرى.

ويعوّل على هذا المشروع في تحفيز الدراسات الكتابية الأصيلة، التي ينبغي لنا كمشرقيين أن نضطلع بها بعد تحرّرنا من عقدة نقصنا تجاه الغرب، وهي عقدة أسهمت إلى جانب غياب المرجعيات البحثية الجدية في لبنان، في

تحويل مجمل نتاجنا في المواضيع الكتابية إلى ترجمات مغلفة، واقتباسات تدعي الإبتكار.

وبعد، صحيح انّنا لم نقتحم بعد بصورة مباشرة عالم الدكتوراه ولا مراكز الابحاث الجديّة المؤطّرة بانتظام، الاّ اننّا لم نهمل طموح طلاّبنا وتوجّههم المألوف في هذه المجالات، فأمنّا منذ زمن هذا الاكمال في الجامعات الاوروبيّة والاميركيّة التي عقدنا معها الاتفاقات الثنائيّة، ووفّرنا لمعظم طلاّبنا المنح الاكاديمية اللازمة وللكثيرين أيضا بدلات الاقامة والتنقّل.

وعلى روزنامتنا تأهيب ما يلزم من موارد بشريّة وماديّة للانخراط محلّيا في بحر هذا العالم المتسّع ، متطلّعين بكثير من الجرأة والصدق الى تكافل مع الجامعات الوطنيّة أو أقلّه مع بعضها لتأسيس مركز مشترك للابحاث ولدراسات الدكتوراه.

٣- اليوم وليس غدًا

وبعد،

تلك هي العناوين الكبرى لسياستنا البحثية والتي ستتوسّع وتغتني سنة بعد سنة وبحثا بعد آخر، والتي تعدُّ الخطوات أدناه "مراسيمها التنفيذية" العامة:

- إنشاء مجلس متخصّص لدرس مشاريع الأبحاث واختيار ما ستتبنّاه الجامعة تمويلا ومتابعة ونشرًا، ولرسم سياسة الجامعة البحثية على المديين المتوسط والبعيد من حيث مجالات البحث، وأولويات التمويل وغير ذلك.
- تطوير التعاون البحثي مع الجامعات الأخرى، المحلّية والعالميّة، حول مشاريع بعينها من خلال تطوير التعاون بين الكليّات ذات الإختصاصات المتقاربة، حتى يثمر التنسيق بين مؤسسات التعليم العالي في لبنان وخارجه، إنتاجًا معرفيًا نفاخر به، ولا يقتصر على التشاور الموسمي والشكلي.
- إعتماد الأبحاث المنشورة وفق المعايير العالمية معايير لتصنيف الأساتذة وترقيتهم، وتشجيعهم على البحث عن طريق تمويل ابحاثهم.

- رفع عدد المصنفات العلمية في مكتبة الجامعة، وزيادة عدد الإشتراكات بكبريات المجلات البحثية والمواقع الإلكترونيّة المتخصصة.
- تشكيل لجنة تحكيم تعنى باختيار الدراسات التي ستنشرها دار الجامعة الأنطونية، بحيث تقتصر على نتاج أعضاء عائلة الجامعة التي كبرت وتفرّعت اختصاصات وكفاءات بما يكفي كي توفّر للجامعة نوعًا من "الإكتفاء الذاتي" على صعيد النشر.

خاتمـــة

ليس انكبابنا على البحث العلمي تهرّبا من التصدّي لمشكلاتنا السياسية القديمة المتجدّدة، ولا اختباء خلف حياديّة العلوم المزعومة خوفا من تهم الإنحياز، بل هي في صلب تصميمنا على الإرتفاع بمحبّة الوطن والسعي إلى تطويرها الى مستوى التخطيط العقلاني، ومستوى أمهات المشاكل لا صغريات العوارض.

أوليس إرشاد الشباب إلى بذور العبقرية الفكرية الكامنة فيهم أفضل ما يمكن أن يقدّم للنهضة بهذا الوطن؟ أليست صورة لبنان كجامعة العالم العربي ورئته الثقافية أنفع له من الشعارات والتصريحات؟

لذا فإننا حريصون على أن يأتي إسهام الجامعات في الحياة السياسية والنقاش العام أميناً لرسالتها التمدينية التنويرية، علّ العقلانية متى أصبحت لغة الأكثرية تنقذنا من براثن الحروب المتوالدة، والتواريخ السقيمة التي تباهي بأن تعيد نفسها على جثث أعمارنا وطموحاتنا.

وإذ أجدّد إيماني بعون الله وبسيّدتنا شفيعة الجامعة، أشكر جميع العاملين في الجامعة الأنطونية من آباء ونوّاب رئيس وعمداء ومديرين وأساتذة وموظّفين على عطائهم السخي المتفاني، وأحيي أعزائي الطلاب فهم قبلة جهودنا كلّها ومحك نجاحاتنا، وقد برهنوا، على الرغم من المحن التي مرت بها البلاد، أنهم جديرون بإعطاء المثال الحسن في الإنفتاح والحوار وقبول الإختلاف.

ولن أنسى، في احتفالنا بذكرى تأسيس الجامعة، أولئك الذين نشأت على أيديهم، مترحّما بنوع خاص على كلّ من قدس الأباتي يوحنا سليم الذي سعى

بعناد للإستحصال على ترخيص للجامعة، والأب قيصر الأشقر مندوب الجامعة لسنوات لدى مجلس التنسيق بين الجامعات الكاثوليكية في لبنان.

جامعة ثرية بهمّة العاملين فيها وصلوات من من عائلتها انتقلوا إلى رحمة الله بعدما أرسوا أساساتها على الصخر، جديرة بالحياة، جديرة بأعلى درجات الطموح، وقادرة أن تعد، عند قدمي سيدة الزروع، بغلّة أوفر لكل عام مقبل.